

كل هذا يكشف لنا بجلاء أن الطابع الذي غلب على النثر العربي في عصر البعثة النبوية هو طابع النثر العادي ، وذلك بالرغم من حاجة الرسول إلى الكتابة ، وإلى استخدامه لعدد غير قليل من الكتاب . ولكن ذلك كله لم يمكن الكتابة من النهوض إلى مستوى الفن بكل ما تعنيه هذه الكلمة وإن اتصف بالفصاحة والوضوح ودقة الأداء . فقد كانت الكتابة في هذا العصر لا تزال تحبو في مراحل طفولتها الأولى ، وما كان لها أن تكون أكثر مما آلت إليه ، فلم ترتق فوق مستوى الأداء والإفهام ، ولم تستخدم أكثر من صيغة الخطاب البسيط كما رأينا .

- ومهما يكن من أمر فنحن لانملك بعد هذا سوى أن نعرض الموضوع على معيار الفن كما عرفه النقاد العرب القدماء أنفسهم ، حتى نطمئن تماماً إلى تلك الصورة التي نضع النثر في عصر البعثة النبوية في إطارها . ذلك أنه ليس صحيحاً أن « كل ما أفهمك حاجته فهو بليغ » لأن لغة الإفهام لا تقصد إلى أكثر من الأداء . والبلاغة بمعناها الفني لا يمكن أن تنزل إلى هذه البساطة

= ولا طول . ففي مثل هذه الكتب الملوكة متسع للشك إن أراد . والذي يراجع القصة التي حكيت حول كتاب الرسول إلى ملك الروم يرجح أنها من قبيل الأخبار القصصية لا الحقائق التاريخية . . (تطور الأساليب . . ص ٣٣ — ٣٤) .

والمهم أن هذا الذي يراه أنيس المقدسي بشأن الشك في صحة هذه الكتب النبوية يجيء في عام ١٩٦٠ حين أصدر الطبعة الأولى من « تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي » ، ولكنه فاته أن يشير أية إشارة إلى التحقيق العلمي الذي قام به الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي بنشره « مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة » وقد نشر في عام ١٩٤١ ، والذي يقرأ المقدمة التي كتبها المحقق لهذه المجموعة تتضح له القيمة التاريخية لهذه الوثائق وموضعها بين الشك واليقين .